سميرة عزّام والقصة

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

انه ليحزنني أشد الحزن ، أن أقف اليوم لاتحدث عن انسان عزيز علي قريب الى نفسي ، من خلال قراءة نتاجه ، بينما كان هذا الانسان قبل شهور ، صفحة حية مشرقة ماثلة امامي ، تتجسم فيها صفات الذكاء الحاد ، والفكاهة العذبة ، والحيوية المتدفقة والاخلاص الفذ . ان مهمة مؤرخ الادب او ناقده لتغدو عسيرة شاقة ، حين يضطر في بضعة شهور ، الى ان يقسر النظرة التي كانت تقرأ الادب من خلال الحياة ، على ان تطالعه صفحات مكتوبة وحروفا صامتة ، يستجلي فيها بالتأمل والتفكير ، ما كان بالامس يستجليه بالحس والمخالطة والخبرة الحية ـ فوالله لولا انها سميرة ، الصديقة المثلى ، التي نعمت بصداقتها الخالصة وودها المصفى ردحا من الزمن ، عزت فيه الصداقات ، لما أقحمت نفسي هذا المقتحم ، لاتلو على مسامعكم كلام المؤرخ الناقد ، الذي كان بالامس القريب سرار الصديق الى الصديق ، أو خطاب القارىء المتذوق الى الكاتب المبدع ، حيث يتسع مجال المناقشة وتصطبغ كل عبارة بلون الحياة وينطلق الكلام حوارا تحوطه رعاية الصداقة ، ومقابسة يلفها جو الثقة ، فيصبح المتذوق والمبدع كلاهما معلما ومتعلما .

ما كان أغنانا اينها الصديقة العزيزة ، عن هذا الحوار الاصم ، لولا فجيعة النكسة التي كنت قريبا من قرابينها ، وشهيدة من شهدائها في ذلك الرتل الطويل من المجاهدين الشرفاء الذين صعدت ارواحهم في معراج الفداء ، لتتبوأ مكانها في أعلى عليين مع القديسين الاخيار والشهداء الابرار .

***

منذ عشرين عاما أخذت تنعقد في أفق الادب العربي سحب سوداء مدلهمة ، تراكمها زفرات حرى كان يصعدها الفلسطيني التائه ، لتصور احزانه ، عقب تلك النكبة التي دمرت نفسه وقصمت ظهور اخوانه العرب . وكان يجد متسعا للكلام ، اذ أوهم بأن ليس ثمة متسع للعمل ، فصاحب القضية مكره على ان يتنازل عنها لمحاميه ، ليحل المدافع بالكلام مكان المدافع بالساعد ، وتغدو قضية صاحب القضية ، الجري وراء لقمة العيش الملوثة بالدم والمهانة ، ينتظم من اجلها صفوف طويلة ، ويطاردها اناء الليل واطراف النهار ـ في تلك الايام المضمخة بعبير الجهاد وامجاد الثورات المظفرة ، المجللة بسواد الحاضر ومآسي الامس القريب ، كان المقيم يلوك لسانه ولا يجرؤ على ان يخرجه ، والمهاجر يمضغ ذكرياته بما اختلط فيها من حلو لسانه ولا يجرؤ على والمهاجر يمضغ ذكرياته بما اختلط فيها من حلو ومر ، مرددا حماسيات أبراهيم وملاحم عبد الرحيم ، شهيد الشجرة ، وشوارد أبي سلمى ، ورومانسيات فدوى التي كانت ترثي الوطن حين ترثي أخاها ، ثم ينطلق لسانه هو ليعبر عن النكبة الفاجعة بعد ان خرجت من حيز الامكان والترقب الى حيز الواقع والفعل . كانت كل الجوانح مطوية على الالم ، وكل السواعد متحفزة للعمل ، لو أتيح لها العمل ، وكل الالسنة مشحوذة للقول وما اوسع مجال القول .

في تلك الايام الحزينة ، بدأ قلم سميرة يلتمع بين الصفوف في خشية واستحياء . كانت تبحث عن بيئتها وذكرياتها بعين فتاة صغيرة نائهة فقدت بيئتها وذكرياتها ، في خضم متلاطم الامواج ، لم تكن تلحظ فيه ، في بدء تفتح موهبتها ، الا الاشياء الصغيرة . كانت تلقي ببطلتها لتختبر ما يختبره غيرها من الفتيات في البيئة الجديدة تلك ، ولكنها كانت تكبح زمامها وتلجم خطاها لانها ، كما تقول ، « ليست كالاخريات ، وهي غيرهن نبتا ونشأة ، وهي ذات مبادىء ما أرخصتها قط » .

وكانت ترى الناس من حولها « يحسون الايام ، اما هي فما في عام يروح وآخر يجيء مبعث فرحة او محرك امل ، فيومها الاخير كبقية الايام ، وليلتها كتلك الليالي الباهتة ، وجه تقنع بالجمود » . وكانت تكتشف ذاتها او تسعى لتوكيد ذاتها امام جدار الجنس الاخر الذي يقيد خطى الفتاة ، ويشل حركتها ، وهكذا تضطرب صورة الحياة بين يديها وتغدو القصة حكاية نفس ملونة بلون الذات ، تعالج بها التجربة لتقود الى الموعظة ، وتذوب فيها الحدود بين الميلودراما والمأساة . وبذا اكتسبت اقاصيصها الاولى حيويتها من انشغالها بالقضايا الاخلاقية ، النابع من تربيتها ومحيطها وذكريات الايام الخوالي في ديار الوطن . لقد كان مستودع الذكريات معينا ثرا اغترفت منه ، وانتشلت من طيه أيام السعادة الاولى ، وتقاليد العائلة المحافظة ، معكوسة على جدار الحاضر المظلم في بابل المهاجرين واللاجئين والسبايا ، او العائدين الذين لم يعودوا . ومن خلل الملاحظة الدقيقة والوعي الاخلاقي الذي لا ترتحي قبضه ، اخذت شخصياتها تتحرك وتنمو ، ومواقفها تتطور وتتبلور ، كان همها آنذاك ان تتذكر وان تلاحظ وان تحس ، أما التأمل والتفكر ، والشك والايمان ، والنقد والمحاسبة، فطورها لم يحن بعد . كانت اقاصيص الاشياء الصغيرة صراعا بين الروح العذب والنفس البريئة الطاهرة من ناحية ، والمحيط الجديد الذي لم تستطع ان تهضمه وتتمثله وتمتصه في كيانها لتتلبس به كيانا آخر . انها يقظة الطبيعة المتخيلة المبدعة ، والتماسها المجال الذي تستطيع أن تنداح فيه وتتسع وتتسرح ، سواء في عالم التصوف الاخلاقي أو المحبة الانسانية . انها وعي الاخلاق في طبيعة منبسطة كبلها الظلم والعزلة والحدود التي تفرضها الذكريات والمواضعات ، والنقوى الموروثة والتعطش الى السمو والتشبث بالمثل .

لقد صارعت صراعا مريرا لكي تتحي ذاتها وتقف على طرف المسافة الموضوعية بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون ، وجاهدت لكي تظل بعيدة عن مواقفها وأشخاصها ، وتنطلق الى حياد الكلاسيكية وصدقها : « كانت » كما تقول « في رأسها خطوط مختلفة لمشروع ، كانت تعاني فيه فراغا لا يملؤه الا جبار ، جبار يبدو معه ماضيها شيئا ممسوخا ، شيئا لا يجرؤ حتى ان يهز في نفسها مكامن الحنين او ان يقول انه منها ... كانت تحب الحياة وتهيىء نفسها لرسالة فيها لا تعرف كيف تبدأ بها ، وكان الفراغ يخيفها ويجسم لها فظاعة العدمية، وبانت نضيق بالركود وتشاق شيئا من التطرف في طبعها : ان تحب كثيرا وتكره كثيرا ، ولا يمكن لانسان فارغ ان يبلو شيئا من هذا » . انها ، اذن ، تبحث عن الجبار او البطل : « بطل دوره في حياتها عظيم ، متفرد يرقى بها الى حيث تكون الحياة عبقرية وفنا لا يمارسهما كل الناس ، الى حيث يعبر الانسان عن انسانيته باصالة كبيرة » .

في تلك الايام ، أيام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، حين كانت سميرة تكتب اقاصيص الظل الكبير ، عثرت على البطل الجبار الذي كانت نفسها تتشوف اليه ، وعثرت الامة العربية على البطل الجبار الذي جسم طموح الامة وبعث الامل في نفوس ابنائها ، وبخاصة ابناء الفردوس المفقود النائمين على حلم العودة ـ حينئذ بدأت معادلة حياتها تتغير على ضوء باهر جديد : اخذت تسقط من مخزونها ذكريات الفتاة الانثى ، وشرعت تستوعب في كيانها تجارب البطلة المجاهدة ، متفيئة ظل البطل الكبير صانع الامجاد ومجترح المعجزات .

والتطور الفني لسميرة يكشف عن هذه الحقيقة الساطعة ، فموهبتها الاصيلة وطاقاتها المتحفزة وقدراتها المتعددة ، لم تتسرب في الطريق السوي الذي كانت تغذ السير اليه الا حين اكتشفت بطلها والتزمت بقضيته : قضيتها . هنالك فقط احست بذاتها وعرفت اين تضع قدمها وكيف توظف موهبتها . لقد اطل العصر الجديد ، عصر الادب المكافح ، في افصوصتين من اقاصيص الظل الكبير ، استوحتهما من احزان اللاجئين وعذابهم وحنينهم الى العودة ، وهما « زغاريد » و « عام آخر » . وفي هذه المجموعة ايضا بدأت تفكر في مواجهة الموت مواجهة مأسوية ، خالصة من الميلودراما والوعظ والتعليق . وبدأت تأخذ نفسها اخذا شديدا : تحاسب وتعاود وتراجع ، وتكتشف ان موهبتها وحدها لن تكفي لتحمل تبعات العهد الجديد ، عهد الكفاح ، فلا بد اذن من تعهدها بالصقل والتهذيب . اقبلت على القراءة ، واتسع نطاق قراءاتها ليشمل الى جانب الادب الدراسات الانسانية والعلمية ، واخذت اقاصيصها الجديدة تشي بتلك الثقافة ، ولو ان عناصر منها بدت وكأنها استعصت على الهضم ، فران على السطح بقع تجريدية لم يتمثلها الفن ، او لعل الاصح ان نقول ان هذا التجريد كان ضربا من الصراع بين العاطفة والحاجة الذاتية من جهة ، وبين حلم التميز والبروز ، مشروع المستقبل الذي استهلت به مجموعة « الظل الكبير » من جهة اخرى . فلذا طغى الضوء الباهر على اللهب الذي ينضج دون ان يعشي الابصار . وبدت بعض نواحي الضعف هنا وهناك ، في طور التصفية ذاك ، نتيجة لطغيان الاحساس ، او تعجل الاحساس المندفع الى ان يقف ثمار التؤدة والنضج .

ثم جاءت القصص الاخرى حصاد سنوات سمان عجاف ، ثارت العراق . ثم انحرفت ثورتها ، وعاثت سميرة اعراس الثورة واتراح الانحراف في عاصمة الثورة . وكانت الوحدة ، حلم الاجيال الذي بعث الامل وادنى القطاف ، فاذا باقاصيصها تبتهج حينا ، وتشارك في تعميق حس المأساة وفي ابراز صورها الدامية حينا اخر ، كأنها كانت تستحث الثورات على العمل ـ واذا « ببرك سليمان » و « خبز الفداء » تجسمان المأساة في اعمق خطوطها واباس صورها . كانت عطشى تبحث عن الماء ، وكانت تائهة حيرى تبحث عن وطنها بين تلك الاوطان التي تحررت او توحدت ، وتصرخ في وجه الثورة الا تقدمي ، وتستغيث ببطل الاحلام الفارس ان يردفها وراءه ويعود بها الى الوطن الحبيب .

ثم كانت « الساعة والانسان » ، مآسي متلاحقة يتصارع فيها ما هو من نتاج الملاحظة وما هو من ثمرة التأمل العميق . فالفلسطيني ما يزال مشردا موصوما بنسبته اينما حل ، مسبي النفس والجسد ، تراكمت الوان الخيبة عليه ، وتلاشت احلامه في العودة بعد الانفصال ، وعادت لغات بابل المنكرة تضج من حوله ، كلام في كلام ، فليبدأ هو وليتدبر نفسه للعمل ، اذ لم يشدبه احد ، لانه يحبهم ، وضريبة الحب هي الفداء . هل يئست سميرة بعد ذلك ، لقد ألقت بنفسها بين شقي رحى ـ فلتكن كاتبة ولتكن مجاهدة ، لتكتب ، على ان تحقق مشروعها الكبير ، سيناء بلا حدود ، ولتتدبر نفسها ايضا للعمل وللفداء . كلاهما شاق عسير ، ولكن خلاص الوطن فوق الراحة بل فوق الحياة . والكلام وحده لا يجدي وان كان من ذهب ، والفن ترف للفنان الشريد . ثم وقعت الواقعة ، واعجلتها النكسة ، وحطمت نفسها فعادت تمضغ لسانها وتجتر ذكرياتها وتقتات بآلامها ، واسوى الزرع على ساقه ونضجت الثمرة بل احترقت ، وسقطت سميرة شهيدة حب ولكن لبطلها ، وفداء ، ولكن لوطنها .

***

عليك سلام الله ايتها الرفيقة المناضلة ، وليكن عزاؤنا فيك ان سيرة كفاحك العطرة ستظل نبراسا يضيء دياجي الخطوب ويهدي خطى الحائرين ، ويحرق انفاس المترددين المتخاذلين .

ولتردد المحافل والكتب ، حين تعرض الامم امجادها في سوق المفاخر : كانت اديبة مجاهدة ، ما صر القلم في يدها الا وعينها على فلسطين ، وما حملها الخيال يوما على اجنحته الا ليحوم بها في اجواء الوطن الحبيب ، وما انتدبت نفسها الى عمل الا والوطنية حسيبها ورقيبها ـ شاركت في الذود عن الوطن مخلصة متفانية ، حين عز الحماة وكثر الرغاة المتشدقون المتفيهقون ، ولم يثبت في مستنقع الموت الا الصادق الامين .

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول

الاستاذ نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها

في كل مكان

أولاد حارتنا

* أجرأ وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة
* الرواية التي أثارت ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها أن تصدر في كتاب ...
* تنشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج أنيق وطباعة فاخرة

الثمن ٧٥٠ ف. ل.